

ا ٲ تعالى.. ملجأ العارفين



"إِذَا حَلََّ الهمُّ، وَخَيَّـمَ الـغم، واشتد الكرب، وعظم الخطب، وضائق السبل، وبارت الحيل، نادى المنادي: يا ا ٲ.. يا ا ٲ" (لا إِلَهَ إِلَّا ا ٲ العظيم الحليم، لا إِلَهَ إِلَّا ا ٲ رب العرش العظيم، لا إِلَهَ إِلَّا ا ٲ رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم)، فَيُفَرِّج الهم، وَيُذَفِّس الكرب، وَيُذَلِّل الصعب (فَاسْتَجِبْـنَا لَهُ وَنَجِّـنَا هُ مِنْ الـغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الـمُؤْمِنِينَ) (الأنبياء / 88)، (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّـكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) (النحل / 53). "إِذَا أَجْدَبَت الأرض، ومات الزرع، وجف الصرع، وذبلت الأزهار وذوت الأشجار، وغار الماء، وقل الغذاء، واشتد البلاء، خرج المستغيثون بالشيوخ الرُّكَّع، والأطفال الرُّضَّع، والبهائم الرُّتَّع، فنادوا: يا ا ٲ، واستغاثوا: يا ا ٲ، فينزل المطر، وينهمر الغيث، ويذهب الظمأ، وترتوي الأرض"، (وَتَرَى الأرضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الـمَّاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْزَلْنَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٍ) (الحج / 5)، وَإِذَا بِالماء يروي من العطش، وَيُذَقِّـي من الدنس. "إِذَا اشْتَد المرض بالمريض، وضعف جسمه، وشحب لونه، وقلت حيلته، وضعفت وسيلته، وعجز الطبيب، وحر المداوي، وجزعت النفس ورجفت اليد، ووجف القلب. انطرح المريض، واتجه العليل إِلَى العلي الجليل، ونادى: يا ا ٲ.. يا ا ٲ، فزال الداء" ودب الشفاء وسُمع الدعاء (وَأَيُّـوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنْ نِـيْ مَسَّـنِي الضُّرُّ وَأَنْزَلْتَ أَرْحَمُ الرُّاحِمِينَ * فَاسْتَجِبْـنَا

لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (الأنبياء / 83-84). "إِذَا انطلقت السفينة بعيداً بعيداً في البحر اللجى، وهبت الزوابع، وتسابت الرياح، وتلبّد الفضاء بالسحب، واكفهر وجه السماء، وأبرق البرق، وأرعد الرعد، وكانت ظلمات بعضها فوق بعض، ولعبت الأمواج بالسفينة، وبلغت القلوب الحناجر، وأشرفت على الغرق، وتربص الموت بالركاب، اتجهت الأفئدة، وجأرت الأصوات: يا الله.. يا الله، فجاء عطفه، وأشرق ضياؤه في الظلام الحالك، فأزال المهالك": (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَاللَّهُ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَّ يَمُّنَ بِهِمْ يَبْرِحْ طَيْبَةً وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَطَنُوا أَرْزَهُمْ أُحْيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَرْزَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّآ أَرْزَاهُمْ إِذَا هُمْ يَدْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا نَسَمَا بَغْيِكُمْ عَلَى أَرْزَفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (يونس / 22-23)، (قُلْ مَنْ يُنْجِيَكُمُ مِنَ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَاللَّيْلِ حَرْ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَرْزَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنْجِيَكُمُ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ) (الأنعام / 63-64). "إِذَا حلقت الطائرة في الأفق البعيد، وكانت معلقة بين السماء والأرض فأشّر مؤشر الخلل، وظهرت دلائل العطل، فذعر القائد، وارتبك الركاب، وضجت الأصوات، فبكى الرجال، وصاح النساء، وفُجِعَ الأطفال، وعم الرعب، وخيم الهلع، وعظم الفزع، أَلَحُّوا في النداء، وعظم الدعاء: يا الله.. يا الله.. يا الله، فأتى لطفه، وتنزلت رحمته، وعظمت مَنَّتُهُ، فهدأت القلوب، وسكنت النفوس، وهبطت الطائرة بسلام". "إِذَا اعترض الجنين في بطن أمه، وعسرت ولادته، وصعبت وفادته، وأوشكت الأم على الهلاك، وأيقنت بالممات، لجأت إلى منفس الكربات، وقاضي الحاجات، ونادت: يا الله.. يا الله، فزال أنينها، وخرج جنينها". إِذَا حلت بالعالم معضلة، وأشكلت عليه مسألة، فتاه عنه الصواب، وعز عليه الجواب، مرغ أنفه بالتراب، ونادى: يا الله.. يا الله، يا معلم إبراهيم علمني، يا مفهم سليمان فهمني، "اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم"، فيأتي التوفيق وتُحل المغاليق. "فهو تعالى الملاذ في الشدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلة. يتجه إليه المريض الذي استعصى مرضه على الأطباء.

ويدعوه آملاً في الشفاء". ويتجه إليه المكروب يسأله الصبر والرضا، والخلف من كل فائت، والعوض من كل مفقود، (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ) (البقرة/ 156). ويتجه إليه المظلوم آملاً يوماً قريباً ينتصر فيه على ظالمه، فليس بين دعوة المظلوم وبين حاجب، (أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْتَ صَرِيرٌ) (القمر/ 10). ويتجه إليه المحروم من الأولاد سائلاً أن يرزقه ذرية طيبة، (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيحًا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنِّي وَرَائِيَ وَكَانَ زَكَاةً أَمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَدُنْكَ وَلَدًا * يَرَبِّ ثُنِّي وَيَسِّرْ لِي أَلًّا يَعْزُقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيحًا * يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيحًا) (مريم/ 4-10). وكل واحد من هؤلاء آمل في أن يُجاب إلى ما طلب، ويحقق له ما ارتجى، فما ذلك على قدرة الله بعيد وما ذلك على الله بعزير. أي سكينه يشعر بها المؤمن حين يلجأ إلى ربه في ساعة العسرة ويوم الشدة. فيدعوه بما دعا به محمد (ص) من قبل: "اللهم رب السماوات السبع، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى. منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول، فليس قبلك شيء. وأنت آخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عني الدين. واغنني من الفقر". فهو سلوة الطائعين، وملأ الهاربين، وملجأ الخائفين، قال أبوبكر الكتاني: "جرت مسألة بمكة أيام الموسم في المحبة. فتكلم الشيوخ فيها. وكان الجنيد - رحمه الله - أصغرهم سناً. فقالوا له: هات ما عندك يا عراقي. فأطرق ساعة، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، ومتمل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيئته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه فإن تكلم: فبا. وإن نطق: فعن الله. وإن عمل: فبأمر الله. وإن سكن: فمع الله. فهو الله، وبالله، ومع الله، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد. جبرك الله يا تاج العارفين". إليه وإلا لا تُشددُ الركائبُ *** ومنه وإلا فالمؤملُ خائبٌ وفيه وإلا فالغرامُ مُضَيَّعٌ *** وعنه وإلا فالمحدثُ كاذبٌ من علق نفسه بمعروف غير معروف الله فرجاؤه خائب، ومن حدَّث نفسه بكفاية غير كفاية الله فحديثه كاذب، لا يغيب عن علمه غائب، ولا يعزب عن نظره عازب، (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (يونس/ 61). المصدر: كتاب الله أهل الثناء والمجد